موقف القرآن الكريم من العمل العقلي والرد على اتهامات المستشرقين

الغزو الفكري

إعداد أ/ محمد الجوهري
قسم الدعوة وأصول الدين
كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
waleed.eltantawy@mediu.edu.my

خلاصة—هذا البحث يبحث في موقف القرآن الكريم من العمل العقلي والرد على اتهامات المستشرقين.

الكلمات الافتتاحية: اتهام، الرد، المستشرق.

I. *المقدمة*

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد أخي الطَّالب، سلامٌ من الله عليكَ ورحمةٌ منه وبركات، ومرحباً بك في سلسلة الدُّروس المقرَّرة عليك في إطار مادَّة الغزو الفكري، لهذا الفصل الدِّراسيّ ، آملينَ أن تجدَ فيها كلّ المُتعة والفائدة، وفي هذا الدرس نتعرف على موقف القرآن الكريم من العمل العقلي والرد على اتهامات المستشرقين.

II. موضوع المقالة

ليست القواعد غاية تقصد لذاتها ولكنها وسيلة إلى ضبط الكلام
أنتقل بعد ذلك إلى ما يدّعيه المستشرقون من اتّهام الفلسفة الإسلامية والعقلية العربية بأنها عقلية جزئية، واتّهامهم للقرآن بأنه يعوق العمل العقلي عن التفكير. وهذه من أخطر القضايا التي أثارها المستشرقون، وللأسف الشديد يردّدها كثير م مّن يحملون الأقلام في عالمنا العربي وعالمنا الإسلامي . وقد أُرجئ الحديث عن العقلية العربية والفلسفة الإسلامية إلى ما بعد مناقشة هذه الدعوى الكاذبة: أنّ القرآن يعوق العقل عن التفكير. هذه القضية ينبغي أن نفرّق فيها بين أمريْن : بين الواقع المعاصر الذي يَعيشه المسلم الآن ويعيشه العالم الإسلامي: هل حقيقة أنّ القرآن الكريم يعوق العقل عن النظر وعن التفكير والتأمّل؟ أو إن شئت فقل: يعوق العقل عن التفلسف؟
أقول: ينبغي أن نفرّق هنا بين أمريْن، بين واقع المسلمين، بين واقع العالَم الإسلامي المعاصر الآن، وبين ما جاء في ا لقرآن الكريم من قضايا عقلية وأوامر إلهية تحفز العقل وتحثّه حثًّا على النظر والتأمل والتفكر . وسوف أستعرض هذا بشيء من التفصيل الآن لأهمّيته من جانب، ولخطورة هذه الدعوى من جانب آخر، ولأن المستشرقين يربطون تخلّف المسلمين الآن بتمسكهم بالقرآن الكريم.
تعالوا نستقرئ واقع القرآن الكريم وموقفَه من التأمّل والعمل العقلي . اقرءوا معي: أوّل آية نزلت من القرآن الكريم في قوله تعالى: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } [العلق: ١، ٢]. إذا رجعنا أو إذا عُدنا إلى كتب التفسير، نجد جم هرة كبيرة من علماء التّفسير. فبعضهم يقول: { اقْرَأْ} هنا لا مفعول لها، لا تحتاج لمفعول . وبعضهم يقول: إن المفعول محذوف . والجمهور الأعظم يستدلّ بهذه الآية على : أنّ القرآن نزل ليحثّ الإنسان على التعلّم، ويقصدون بالتعلّم هنا : التعلّم الأبجدي: القراءة والكتابة. ولكن أنا ألفت النظر إلى أمْر آخَر: { اقْرَأْ} هنا: فعْل، ونحن نعلم: أنّ اللغة العربية الفعل فيها إمّا متعدٍّ يحتاج إلى مفعول، وإمّا لازم لا يحتاج إلى مفعول. والفعل { اقْرَأْ} الذي معنا الآن من نوع الأفعال المتعدّية التي تحتاج إلى مفعول، ومفعول الفعل هنا ه و عبارة: { الَّذِي خَلَقَ}: اسم الموصول وصِلته.
يريد الحق - تبارك وتعالى: أن يبيّن لنا في أوّل آية خاطبَت الإنسان، أوّل آية نزلت من القرآن الكريم، أن يلفت نظرنا إلى القراءة العقلية، ولا أقول القراءة البصرية، أو أنّ هذه القراءة تتعلّق بمقروء، وهو هنا : الذي خلق المخلوقات، الكون وما فيه . فاسم الصلة - الاسم الموصول : {الذي}، وجملة الصلة كلّها تؤوّل أو تفسّر بأن المقروء هنا هو : المخلوق. عليك -أيها المسلم- أن تُعمل عقلك في المخلوقات {الذي خلق}، لكن بشرط أن تكون هذه القراءة باسم الله، وليست باسم الشيطان، ولا باسم الإلحاد، ولا باسم العلْم، ولا باسم العقل؛ وإنما يجب أن تكون باسم الله الخالق . فكأنّ القرآن يلفت نظرنا في أوّل آية إلى أنْ نقرأ الكون وما فيه، وأن تكون قراءتنا للكون الهدف منها: ربْط المخلوق بالخالق، ربْط الكون بخالقه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}، اقرأ ماذا؟ الَّذِي خَلَقَ: المخلوقات. فكأنّ القراءة هنا قراءة عقلية. وهذا لا ينفي أن تكون إحدى المعاني المرادة أيضًا : قراءة بصرية، لكن لنا أن نتجوّل في القرآن الكريم لنرى كيف أشار القرآن، وكيف أمَر القرآن العقل الإنساني بقراءة هذا الكون وما فيه.
القرآن نزل في بيئة مكية كما نعلم، وبيئة بدويّة كما نعلم، ولكي يُعَلّم القرآن العقل الإنساني أن يتأمل هذا الكون وما فيه نجد القرآن المكي يلفت نظر الإنسان إلى البيئة المحيطة به من سماء، وأرض، وجبال، ووديان، وأنهار، وأشجار، وإبل، و ... و ... باعتبار أنّ هذه هي العناصر المكوّنة للبيئ ة، ويتأمل فيها من خلقها؟ نقرأ في سورة "الغاشية" قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} [الغاشية: ١٧ - ٢١].
تأمّل معي هذه الآيات، وهذه الأسئلة العقلية المطروحة في هذه الآيات: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}؟ ليس النظر هنا أيضًا نظرًا بصريًّا؛ لأن السؤال عن { كَيْفَ خُلِقَتْ}؟، والسؤال عن كيفية خلْق الشيء غير السؤال عن وجود الشيء . الإبل موجودة، الأرض موجودة، السماء موجودة، لكن السؤال هنا ليس عن وجود هذه الأشياء، وإنما هو عن كيفية وجود هذه الأشياء، وهذه هي وظائف العلم؛ لأن العلم البشري هو الذي يفسر لنا كيف تقع الظاهرة، كيف توجد الظاهرة، لكن لا يفسر لنا ل ماذا توجد الظاهرة؟ ولا لماذا يوجد المخلوق؟ هذه وظيفة العلم : الإجابة على السؤال " كيف؟ وليس الإجابة على السؤال: لماذا؟ ولذلك تجدون هذه الآيات تطرح هذه المجموعة من الأسئلة.
تأملوا هذه الآيات جيدًا : {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ}؟. { وَإِلَى الْجِبَالِ }؟ { وَإِلَى الْأَرْضِ }؟ السؤال عن ماذا؟ {كيف خلقت}؟ أم هي موجودة، أم غير موجودة؟ أم لماذا وجدت؟ لا السؤال عن {كيف خلقت}؟ لم يسرح أو لم يبتعد القرآن عن البيئة المحيطة بالإنسان البدوي، وإنما لفت نظره إلى ما تحت يديه وتحت سمعه وبصره من أشياء هذا الكون، علّ أن يتأمّل فيها ويتساءل: {كيف خلقت}؟
إذا انتقلنا إلى مستوى آخَر من مستويات النظر العقلي الذي أمَر به القرآن الكريم، نقرأ قوله تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: ٢٠]. {كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}؟ والسؤال هنا أيضًا عن: كيف؟ وليس عن: هل وُجد المخلوق أم لم يوجد؟ وإنما { كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} ؟ ولعلّ هذه أكبر مشكلة واجهت العقل الفلسفي قديمًا وحديثًا، وستظل إحدى محارات العقول: { سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}. ويمكن ورثنا عن الفلسفة اليونانية، وعن مؤرّخي الحضارة الفرعونية القديمة اجتهاداتهم العقلية، هل بدْء الخلق كان من الذّرّة من عنصر واحد؟ العالم ينتمي إلى الوحدة؟ أم ينتمي إلى الكثرة التي هي: الماء، والهواء، والنار، والتراب : الأسطقسّات الأربعة؟ بحثُّها القدماء ويبحثها العلماء المعاصرون. لم يبتعد القرآن بالعقل الإنساني عن الكون الذي يعيشه؛ بل أمَره أن يتأمل في هذا الكون، في وجود الإنسان، في وجود العالَم من سمائه إلى أرضه، ويتساءل: { كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}؟
مستوى آخَر من مستويات الأمر الإلهي للعقل الإنساني : أن يتأمّل ويُعمل نفسه، ويُحسن توظيف أدواته في هذا الكون : نقرأ قوله تعالى: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [يونس: ١٠١]. تأمّل معي منطوق هذه الآية لو سمحت! الأمر هنا ليس أمرًا بالنظر إلى السماء، وليس أمرًا بالنظر إلى الأرض، وإنما هو أمر بالنظر إلى ما في السمو ات وما في الأرض. و"في" في اللغة العربية تفيد معنى الظرفية . فكأن هذا الأمر يتطلب منّا أن نخترق حجب السماوات لنعلم ماذا في داخلها، ونخترق حجب الأرض لنعلم ماذا في باطنها. هذا أمر إلهي للعقل الإنساني: أن يخترق حجب الكون كلّه ليعلمَ ماذا فيه.
إنّ القرآن الكريم حفز العقل حفزًا، وأمره أمرًا إلهيًّا بأن يجتاز ويقتحم مجاهل هذا الكون من سمائه إلى أرضه: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [يونس: ١٠١].
وفي مستوى آخَر من مستويات الأمر القرآني، نجد القرآن الكريم يلفت نظر العقل إلى قضية مهمة جدًّا تتعلّق بعمل العقل، قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ

سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: ٢٧، ٢٨].

توقّفْ معي قليلًا لنتأمّل في هذه الآية، ونتعرف على أنواع الكائنات التي ذكَرتْها وطلبتْ من العقل البشري أن يتعامل معها : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} [فاطر: ٢٧]: هذا علْم النبات . {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا}: علم الجيولوجيا. {وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ}: علْم الإنسان، والحيوان. علم الحيوان، والنبات : {مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ}: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

ثم تأمل نهاية هذه الآية التي جاءت في صيغة بلاغية، يُسمّيها علماء اللغة: صفةَ قَصْر أو أسلوب قصْر، بمعنى: أنَّ خشية الله تعالى قاصرةٌ على العلماء، وبقدر ما يزداد العالمُ علمًا بصنعة الله في كونه، يزداد خشية لله .

وهذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي جسَّدت وقصَرت معنى الخشية الحقيقية لله على المشتغلين بهذه الألوان من العلوم الكونية : علم النبات والحشرات، وعلم الحيوان، وعلم الكيمياء، وعلم الفيزياء، وعلم الفلك، وعلم الطب . هذه المجموعة العظيمة من العلوم هي التي تفتح باب العقل للتَّعرُّف على الخالق ولذلك أجدني مضطرًّا هنا إلى أن أعود بك إلى أوّل آية نزلت من القرآن الكريم، لنقرأ فيها قوله تعالى : {اقرأ باسم ربك}. ماذا أقرأ؟ {الذي خلق}. اقرأ الكون وما فيه، اقرأ مخلوقات الله . لماذا؟ لأنّ من وظائف الإنسان في هذا الكون: تعمير الكون؛ { هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود: ٦١]. "الألف" و"السين" و"التاء" في: {وَاسْتَعْمَرَكُم} تفيد معنى الطلب، بمعنى : أنّه طلَب منكم عمارة الكون؛ وعمارة الكون لا تتم إلا بعد اكتشاف قوانين هذا الكون،

واكتشاف قوانين هذا الكون لا تتم للإنسان إلا بعد أن يتعرّف بعقله وبصيرته وبصره معًا على أنواع هذه ال موجودات، ويتعرّف على العلاقات القائمة بينها، كيف يوظّفها؟ كيف يُسخّرها لصالحه؟ لأن الكون في نهاية المطاف مسخَّر لخدمة الإنسان . وهنا نقطة على جانب كبير من الأهمية : أنّ هذه المجموعة من العلوم لا تَعرف الانحياز أو المجاملة، بل هي علوم محايِدة، مَن اكتشف قوانينها استفاد من عطائها ولو كان كافرًا، ومن لم يكتشف قوانينها لم يَجْنِ ثمرتَها ولم يستفد من عطائها، حتى ولو كان من أتقى أتقياء الله . وهذه سُنّة الله في كونه. العلم محايد.

والقرآن الكريم أمَر أتباعه بأن يتعلّموا هذه المجموعة من العلوم؛ لأنها مفتاح خشية الله من جانب، ولأنها قاطرة التّقدّم والنهضة والحضارة وعمارة الكون من جانب آخَر . فمن تعرّف على هذه العلوم جنَى ثمرتها نهضة وحضارة وتقدمًا، ومن لم يتعرّف عليها ولم يتعامل بها لم يَجْنِ شيئًا من ثمرتها. وهذا قانون الله في أرضه.

نجد القرآن الكريم يَلفت نظر الإنسان إلى ضرورة حُسن توظيف أدوات المعرفة التي زوّده الله بها، فإنّ الإنسان قد يملك هذه الأدوات ولا يُحسن توظيفها قال تعالى : {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف: ١٩٨]. اقرأ هذه الآية - يا أخي- مرّة ومرّة ومرّة، لتعرف مطلوب الآية : {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}، كأنّ النظر شيء ووظيفة النظر شيء آخَر. فالإنسان يملك حاسّة البصر وينظر ببصره إلى الأشياء، لكنه لا يعتبر ولا يَعي الدرس من الأشياء التي يتعامل معها . هكذا كان القرآن الكريم داعيًا للعقل الإنساني إلى العمل، آمرًا للعقل الإنساني أن يُحسن أدوات وملَكات المعرفة التي زوّده الله بها؛ فإذا ما قصّر الإنسان ولم يُحسن توظيف هذه الأدوات، إذا أساء الإنسان توظيفها هل يُعاب على القرآن ذلك؟ هل يُعاب على القرآن الكريم ويُتّهم القرآن بأنه سبب إعاقة العقل؟ أم أن نعود باللّوم على الإنسان الذي قصّر وأساء توظيف هذه الأدوات؟ تلك قضية على جانب كبير من الأهمية، ألفت النظر إليها؛ حتى نُبيِّن فساد قول المستشرقين وبطلان اتّهامهم للقرآن بأنه يعوق العقل عن العمل.

المراجع والمصادر

١- الميداني، عبد الرحمن حسن ، (أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها)، دار القلم ١٩٩٠م.
٢- الميداني، عبد الرحمن حسن ، (أسس الحضارة الإسلامية ورسائلها)، دار القلم ١٩٨٠م.
٣- كونوي زيقلر، (أصول التنصير في الخليج العربي : دراسة وثائقية)، ترجمة: مازن صلاح مطبقاني، مكتبة ابن القيم ١٩٩٠م.
٤- جريشة، علي، (الاتجاهات الفكرية المع اصرة)، دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٩٠م.
٥- حسين، محمد محمد، (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، دار الرسالة ١٩٩٣م.
٦- الفيومي، محمد إبراهيم، (الاستشراق رسالة استعمار)، دار الفكر العربي ١٩٩٣م.
٧- السباعي، مصطفى، (الاستشراق والمستشرقون ، ما لهم وما عليهم)، المكتب الإسلامي، ١٩٧٩م.
٨- زقزوق، محمود حمدي، (الإسلام والاستشراق)، دار القلم العربي ١٩٩٤م.
٩- شلبي، عبد الجليل، (الإسلام والمستشرقون)، دار الشعب ١٩٧٧م.
١٠- الطهطاوي، محمد عزت، (التبشير والاستشراق)، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩١م.
١١- خالدي، مصطفى، (التبشير والاستعمار في البلاد العربية)، وعمر فروخ، المكتبة العصرية، ١٩٨٦م.
١٢- عبد العزيز العسكر ، (التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي)، مكتبة العبيكان، ١٩٩٣م.
١٣- علي عبد الحليم محمود، (الغزو الفكري والتيارات المحاربة للإسلام)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المجلس العلمي، ١٤٠٤هـ.
١٤- السايح، أحمد عبد الرحيم، (الغزو الفكري)، سلسلة كتب الأمة، الدوحة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،١٤١٤ هـ.
١٥- البهي، محمد، (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار)، دار الفكر، ١٩٧٠م.
١٦- الزعبي، محمد علي ، (الماسونية في ا لعراء)، مؤسسة مطابع معتوق، ١٩٧٥م.
١٧- عطا، أحمد عبد الغفور، (الماسونية)، رابطة العالم الإسلامي، ١٩٧٨م.
١٨- السقا، محمد صفوت، (الماسونية)، رابطة العالم الإسلامي، ١٩٨٢م.
١٩- العواجي، غالب بن علي ، المذاهب الفكرية المعاصرة دورها في المجتمعات، وموقف المسلم منها)، المكتبة العصرية الذهبية، ٢٠٠٦م.